عمر المختار والحركة السنوسية

الدكتور توفيق سلطان اليوزبكي

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

إن الحديث عن تاريخ ليبيا وبالذات عن برقة في القرن التاسع عشر وبالتحديد في النصف الثاني من هذا القرن يعني الحديث عن الحركة السنوسية بكل ثقلها وانتشارها في الوسط الجماهيري في مناطق ليبيا والسودان وأواسط أفريقيا وغيرها من الاقاليم العربية الاخرى .

بدأت الحركة السنوسية مع بداية استقرار مؤسسها محمد بن علي السنوسي الذي جاب مناطق واسعة من الوطن العربي حتي استقر أخيراً في ليبيا واستطاع ان يفتح اول زاوية في تاريخ الحركة السنوسية في عام ١٨٤٣ . ومنذ هذا التاريخ وإلى بداية القرن العشرين استطاعت الحركة السنوسية ان توطد كيانها الديني والسياسي في المناطق الداخلية من برقة ، واستطاعت ان تضم اليها معظم سكان اقليم برقة الذين أصبحوا جنوداً أمناء للحركة السنوسية في جانبها الديني وفي اندفاعهم للعمل على نشر الاسلام في مناطق افريقيا الوسطى ، وكان لهم بالتالي دور كبير في حركة التبشير الاسلامي في القرن التاسع عشر .

ان الحركة السنوسية في بداياتها كانت حركة دينية استطاعت ان تقوم بدورها لتنقية الاسلام من البدع الي دخلته نتيجة للجهل المطبق الذي خيم على الشعب العربي الليبي في ظل الهيمنة العثمانية في هذه المنطقة كما في غيرها من الاقاليم العربية التابعة للدولة العثمانية.

وقد استطاعت الحركة السنوسية أن تنقل الشعب العربي في برقة نقلة نوعية عميقة في مجال التفكير والسلوك من خلا ل انتشارها الواسع وقدرتها على بناء العديد من الزوايا التي كانت مراكز اشعاع ديني وثقافي . وكانت مدرسة محمد ابن علي السنوسي اعظم المدارس لمبشري الاسلام في افريقيا (١) .

(١) : ستودار ، لوثروب ، حاضر العالم الاسلامي ٢٩٨/١ ، وما بعدها ، ٣٩٩/٢ – ٤٠٧ تجد المزيد من التفاصيل عن هذه الحركة . وانظر : منطاي ، قنسان : العرب والعصوص ٧١

وقد مرت الحركة السنوسية في اربعة ادوار تبعاً لقادتها ، فكان الدور الاول للسيد محمد بن علي السنوسي الذي ابتدأ من عام ١٨٤١ – ١٩٥٩ والدور الثاني للسيد المهدي بن محمد بن علي السنوسي والذي انتهى عام ١٩٠٢ ، والدور الثالث للسيد أحمد الشريف الذي انتهى عام ١٩١٦ بتنازله عن القيادة للسيد ادريس السنوسي (٢) الذي قاد الحركة حتى عام ١٩٢٣ عندما هرب إلى مصر تاركاً ساحة النضال ضد الايطاليين ، والدور الرابع الذي قاد فيه الثائر عمر المختار المقاومة ضد الايطاليين حتى عام ١٩٣١ (٣) .

لقد كانت الحركة السنوسية في بداياتها الاولى عام ١٨٤٠ م وعلى يد مؤسسها محمد بن علي ومن بعده ابنه المهدي ، ذات طابع ديني واضح أساسها العودة بالاسلام إلى ماكان عليه عهد الرسول الكريم وخلفائه الاقربين ولذلك كان القرآن والسنة النبوية الشريفة هما الاصلين الذي يصح الاعتماد عليهما في فهم الاسلام ...) (٤) ومن هنا فان الخط الديني بقي مهيمناً على الحركة السنوسية حتى مطلع القرن العشرين على الرغم من محاولات الكاتبة السوفيتية ز.ب. ياخيمونتش التي حاولت التأكيد على أن الخط الديني كان يبرقع نزعة عربية تحاول الخلاص من الحكم العثماني وتكوين امبراطورية عربية يقف على رأسها مؤسس الحركة السنوسية (٥) حيث ان هذا الرأى يكاد يكون غير واضح في مسيرة الحركة السنوسية في بداياتها التي اعتمدت على تنقية الاسلام ونشره في مناطق أفريقيا الوسطى وتوسيع قواعدها القائمة على الدين بالاساس من خلال الزوايا العديدة التي أنشأتها والتي تركزت في اربعة زوايا تعتبر من اهم القواعد الرئيسية للحركة في كل من الجغبوب والكفرة وجالو واوجا.

وفي الواقع فان السنوسية قد جهزت الليبيين لفكرة الدفاع قبل وصول الايطاليين واصبحت بشكل تدريجي حركة سياسية تهدف إلى تحرر ليبيا

---

(٢) حقي ممدوح ، ليبيا العربية ص٦٥– ٦٨ .

(٣) Fola: The Ressistance movement in Libya, V.4

(٤) زيادة نيقولا : برقة ، ص٦٤، محاضرات ص٧٠ – ٧٥

(٥) ياخموفتش : الحرب التركية الايطالية ص٣٧

ويمكن القول ان في معسكر الصحارى ابتدأ التحول الواضح للسنوسية من منظمة دينية إلى سياسية لتوفير الزعامة الضرورية للمقاومة الليبية ضد الاحتلال الايطالي للبلاد (٦) .

ان المهم في هذا البحث القصير ليس الحديث عن الحركة السنوسية بجوانبها المتعددة بقدر ما هو تحديد العلاقة بين هذه الحركة والثائر عمر المختار الذي ولد في ظلها، ويبدو من الصعب اعطاء دراسة وافية شاملة من سيرة حياة عمر المختار في بحث صغير كهذا (في متناول ايدينا) ، وعليه فيجب التركيز على دوره في الحركة السنوسية وفي مقاومة الاحتلال الايطالي لليبيا (٧) .

في هذه الفترة كانت الحركة السنوسية تتمتع بشبه استقلال ذاتي بعد ان أصبحت ذات ثقل سياسي وديني كبير، ارهب الدولة العثمانية ومنعها من ان تقيض بشكل مباشر على الامور في داخل برقة. وعلى هذا الاساس فقد اعترفت الدولة العثمانية بالامر الواقع وتقربت منهم ومنحتهم امتيازات عديدة باعتراف فرماني منذ عام ١٨٥٦ (٨).

ومن الطبيعي ان هذه الحركة شكلت المناخ الديني والسياسي للشعب في برقة وكانت هي القوة الوحيدة المسيطرة في داخل برقة حين التقى بها عمر المختار.

لم يكن اللقاء الاول بين عمر المختار والحركة السنوسية، لقاء عفوياً بفعل هيمنتها على الجو الديني والسياسي للمنطقة، فكان الشعب بمجمله خاضعاً لهذه الحركة منجراً في تيارها.

وحين ولد عمر المختار عام ١٨٦٢ في عهد الحسين المهدي كان لابد له ان يتتلمذ على الحركة السنوسية ومن ثم ان يصبح من اتباعها المخلصين وقادتها الميامين بعد احتضانها له.

---

(٦) Folay, Kola : The Resistance Movement in Libya.p.47.

(٧) زيادة . برقة ص٣٧ .

(٨) Folay, Kola: The Resistance Movement in Libya. p. 47

نشأ عمر المختار في البادية، فاحاطته الروح العربية الاصيلة بكل ما حملته من مظاهر الفروسية ودواعي الاعتزاز بالنفس وحب التضحية والانفة من الخضوع (٩) فهذا الجو يصعد من الاعتزاز بالفردية وضخامتها عند البدوي وبالتالي يصبح صعب الانقياد للغير، وبالذات للعنصر الاجنبي الذي يقف أمام حريته، فهذه المظاهر الفردية لم تظهر بشكل جلي الا بعد سنين طويلة. عندما كان الصدام مع الايطاليين.

وكالعادة التي كانت سائدة آنذاك كان السكان يرسلون اطفالهم لتلقي العلوم الدينية والثقافية الاخرى على يد مشايخ السنوسية في الزوايا التـــي ابتنوهـــا.

فعندما بلغ عمر المختار ثماني سنوات كان له اللقاء الاول مع الحركة السنوسية لقاء التبعية العفوية والاخلاص بكل ابعاده لهذه الحركة. فقد بعث به والده إلى زاوية جانزور وهي احدى زوايا السنوسية بالجغبوب ليدرس القرآن وبعض العلوم الدينية. فظهرت عليه دلائل النجابة ورزانة العقل مما لفت اليه نظر السيد المهدي فصار موضع اهتمام، كما احترمه رؤساء قبائل العرب لعراقة بيته فيهم ولمكانته عند السنوسية (١٠) وقد مكث في الجغبوب ثماني سنوات في تلقي العلوم الدينية واللغوية والتاريـــخ ايضا كما بانت عليه في هذه الفترة دلائل الشدة والصرامة فكان كلامه قويا كأنه آمر يلقي اوامره لتابعيه (١١) هذه الصفات القيادية اهلته لان يحظي بنظرة مرموقة من القادة السنوسين وبالتالي لان يكون واحداً من اتباعهم المقربين. وفضلا عن الدراسات النظرية التي تلقاها في الجغبوب، فقد مارس اموراً عملية في النجارة والحدادة، كما تلقى تدريباً عسكريا، وقد ذكر بأنه كان لديه ولع في فن الفروسية (١٢) .

---

(٩) محمود ، احمد ، عمر المختار ص٥.

(١٠) محمود ، أحمد ، عمر المختار ص ٥ .

(١١) غراسياني ، رودلفو : برقة الهادئة ص٢٦٨.

(١٢) Folayan: Umar Al-Mukhtar of Libya p.55

وعلى هذا، فان البدايات الاولى لعلاقة عمر المختار بالحركة السنوسية كانت تخضع لاطار التبعية الكاملة، مع احترام واضح لبوادر ظهور شخصيته القيادية المؤثرة، مما حدى بالسنوسيين إلى الاعتماد عليه في ادارة اهم زواياهم المعروفة بزواية القصور الي كانت مركز قبيلة العبيد المعروفة بعنادها وعدم خضوعها. ولقد ادى المختار خلال فترة ادارته للزاوية كشيخ لها بكل شجاعة خلال سنتين من تعيينه كحفظ الامن والتحكم في النزاعات الداخلية، اضافة إلى تنظيم عملية جباية الضرائب وارسال ما تبقى منها إلى المقر العام للسنوسية في الكفرة (١٣) فانقاد السكان له طواعية لعلو همته وقوة شخصيته، فكان له وقع كبير عند القائد السنوسي الذي اختاره على هذا الاساس لمصاحبته إلى السودان، حيث كان الامتداد السنوسي قد ترك بصماته الواضحة في تلك المناطق، وفي نفس الوقت كان الامتداد الفرنسي يسير بخطى حثيثه لايجاد مواطىء قدم لهم في نفس المنطقة من افريقيا الوسطى جنوب الصحراء.

ففي عام ١٨٩٤ اصطحبه السيد المهدي إلى السودان وكلفه بامر نشر الاسلام والدفاع عن الوجود السنوسي ومكافحة التغلغل الفرنسي (١٤) في وادي (سلطنة اسلامية في افريقيا الوسطى) حيث جرت هناك صدامات عنيفة اثبت السنوسيون خلالها جدارة، حيث لم يستطع الفرنسيون احتلال المنطقة بشكل كامل حتي عام ١٩١١. اما عمر المختار فقد رجع بأمر من السنوسية في عام ١٩٠٦ إلى زاويته (القصور) في الوقت الذي بدأ النفوذ الايطالي يأخذ طريقة بشكل اعمق بالتغلغل الاقتصادي ، حيث قام المختار مع القيادات السنوسية الاخرى بتعبئة البلاد لمواجهة التحدي (١٥) الايطالي الذي بدأ بابتياع اراضي الليبيين بالترغيب ، او بالسيطرة كنتيجة

(١٣) *locit:* Kola p. 55

(١٤) محمود : عمر المختار . ص ٨ ، زيادة : محاضرات ص ١٠٣ .

(١٥) Folayan : Umar.. p.57

لعجزهم عن وفاء القروض ذات الفائدة العالية الي لم يستطع الليبيون دفعها فوقعوا تحت طائلة الهيمنة الايطالية على اراضيهم .

وكان الاستعمار الايطالي لليبيا قد بدأ سيطرته اواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بشكل ما يسمى (التغلغل السلمي) وقد تضمنت فعاليات اقتصادية واجتماعية كفتح بنك روما في طرابلس عام ١٩٠٧ . وامتدت فروع هذا البنك إلى بنغازي واثني عشر مدينة اخرى بين عامي ١٩٠٨ — ١٩١١م ، وكانت محاولة الاستعمار الايطالي السيطرة بشكل تدريجي على صادرات ليبيا من الصوف والحبوب والحلف وريش النعام ، وكذلك محاولاتهم للتنقيب عن المعادن في طرابلس ، وبعد ذلك قرر الايطاليون العمل على جعل ليبيا تحت سيطرته بالقوة بعد ان تخلت الدولة العثمانية عن نفوذها في ليبيا بموجب معاهدة اوشي عام ١٩١٢ (١٦) .

حى اذا ما اعلنت ايطاليا غزوها للبلاد عام ١٩١١ كان المختار من اوائل الذين تصدوا لها. لقد كانت علاقة المختار بالقادة السنوسيين حتي هذه العهد تخضع لاطار التبعية الكاملةمع وضوح مبدئه في للكفاح ضد الايطاليين . حتي اذا ما بدأت بوادر المقاومة من قبل القيادة السنوسية كان وضوح غير المساوم قد بدأ يتعمق شيئا فشيئا .

وعلى هذا ففي أعوام الحرب ١٩١١ — ١٩١٦ قد المختار قواته لصد الهجمات الايطالية تحت امرة أحمد الشريف، وقد ضعفت حركة المقاومة في البلاد بعد تخلي العثمانيين عنهم في معاهدة اوشيء عام ١٩١٢ حيث وقع عبء الدفاع عن البلاد على كاهل السكان العرب بعد رحيل ما تبقى من العثمانيين في عام ١٩١٣ حيث كان يقودهم عزيز علي المصري . وعلى هذا فقد فكر العرب بعد رحيلهم إلى اللجوء إلى حرب العصابات(١٧) حيث كانت اسلم الطرق لمجابهة القوات الايطالية المنظمة وباقل الخسائر ودون الاعتماد

(١٦) Folayan Kola : The Resistance movement in Libya, p.46

(١٧) زيادة : برقة ص ٨٥.

على المواجهة المباشرة التي قد تهدد وجودهم القائم على عدد قليل من القوات المجاهدة مقارنة مع نسبة القوات الايطالية الضخمة وقد برز عمر المختار ثائراً لايقهر في حرب العصابات (١٨) فقد وصفه الايطاليون (عدونا الذي لايستهان به) .

ومع بداية الحرب العالمية الاولى ظهر اتجاهان في طبيعة المقاومة، الاتجاه الاول يمثله السيد أحمد الشريف المتعاطف مع العثمانيين والاتجاه الثاني يمثله ادريس السنوسي الذي كان اكثر ميلا للتعاون مع الانكليز . وعلى هذا فان هذين الاتجاهين لم يستطيعا أن يؤثرا على موقف عمر المختار الذي بقى حتى الفترة يعتبر الايطاليين العدو الذي يجب ازاحته من البلاد والاعتماد على الامكانيات العربية سواء الداخلية أو الخارجية من مصر. وبدأت بوادر الاتجاه الاستقلالي له عن القيادة السنوسية رغم عمله تحت لوائهم في نهاية عام ١٩١٦ عندما بدأ ادريس السنوسي بعد رحيل أحمد الشريف إلى استانبول في الدخول مع الايطاليين وبتأثير من الانكليز والوصول إلى اتفاق عسكري في عام ١٩١٧.

وقد سبق ذلك ان تعاون السنوسيون مع العثمانيين في بداية الحرب العالمية الأولى – فوضعت خطة المانية لمهاجمة الانكليز في مصر من قبل القوات العثمانية من جهة الشرق والقوات السنوسية من جهة الغرب – ولكن القوات الانكليزية دمرت القوات العثمانية ثم وجهت ضربتها إلى القوات السنوسية فصدتها بعد ان اوقعت بها ، عند ذاك اضطر السنوسيون إلى عقد اتفاق مع الانكليز ثم مع الايطاليين .

وحتى هذه الفترة كان المختار قد لعب دوراً كبيراً في قيادة المقاومة والوقوف بوجه الايطاليين فكانت معنوياته عالية، مما أدى به إلى الوقوف ضد هذه المعاهدة التي تكرس الوجود الايطالي والسيطرة في المناطق الخاضعة لهم . وتشبث رأيه بان الايطاليين الذين تزعزت معنوياتهم نتيجة الضربات المتلاحقة

(١٨) Kola: The Resistance movement in Libya V.4.p.54

(سرعان مايجبرون على ترك مخططاتهم الامبريالية بشأن ليبيا) ولذلك رفض فكرة الاتفاقيات او المصالحة (١٩). ويبدو ان هذا الموقف الوطني المتصلب يستند على أن حركة المقاومة استطاعت حتى هذه الفترة ابقاء الايطاليين في اماكنهم في الساحل رغم ضخامة امكانياتهم القتالية وتطورها مقارنة مع الامكانيات القتالية التي تمتلكها حركة المقاومة الليبية . مما يؤكد قدرة الحركة السنوسية على مقاومتهم . ولهذا كان الاتجاه الذي سلكه الثائر عمر المختار طيلة سنوات ما سمي بـ (العمل الدبلوماسي) التي ابتدأت منذ عام ١٩١٧ باتفاق عكرمه ومرورا باتفاق الرجمة عام ١٩٢٠ وحتى عام ١٩٢٢ يطبع موقف المختار بطابع المعارض للاتجاه السنوسي رغم عمله تحت قيادتهم ، فهو بهذا استطاع ان يثبت موقفا مشرفا للوطن وللتاريخ عندما اكد منذ البداية وحتى النهاية عدم المساومة على حساب المصلحة الوطنية والتأكيد على ان الكفاح المسلح هو طريق النصر .

وعلى هذا ، فقد ظهر الموقف المتصلب لعمر المختار في اجتماع اجدابية عام ١٩١٩ الذي تقرر فيه اخلاء البلاد التام من القوات الايطالية التي كرست معاهدة عكرمة وجودها ، وعلى هذا فقد صدر قرار اجتماع اجدابية الذي حصره المختار بصفته قائد مجموعة وأكد على ضرورة معاملة الايطاليين كتجار فقط وضمن المدن الساحلية دون السماح لهم بممارسة نشاط عسكري او سياسي (٢٠) كما ظهرت علاقته السلبية بالقيادة السنوسية حينما عقدت معاهدة الرجمة التي منحت الاتفاقية للسيد ادريس السنوسي لقب أمير واعترفت بامارته التي تكون من واحات جغبوب / اوجلو / جالو / كفرة / اضافة إلى اجدابية كعاصمة له ، واعطى للامير المركز الثاني في المناسبات الرسمية. كما اعطي له حق رفع علمه ودفع راتب للامير وتحمل ايطاليا نفقات الجهاز الاداري الذي يضم شيوخ الزوايا ورؤساء القوات غير النظامية والكتاب

---

(١٩) Folayan : Umar..p59.

(٢٠) Ibid.p. 60

وفرض فيها الايطاليون رأيهم بضرورة تسريح المعسكرات السنوسية فترة ثمانية اشهر (٢١) حيث عارض المختار هذا العمل الذي يبعثر القوات المجاهدة بعد ان جمعتها ظروف النضال . كما يؤدي إلى تفتيت الروح التضامنية العالية التي جمعتهم فيها محنة الغزو الايطالي . ويبدو ان المختار كان محقاً في هذه المعارضة وذلك يؤكد بعد نظره في معالجة الامور التي افتقدتها القيادة السنوسية، حيث يبدو أن تسريح القوات السنوسية نزولا عند رغبة الايطاليين معناه تمكين الطليان بأقصر وقت من فرض نفوذها السياسي وهيمنتهم العسكرية على البلاد . وجاء اتفاق بومريم الذي الحق باتفاق الرجمة ليؤكد مساومة القيادة السنوسية المتمثلة بادريس حيث توصل الطرفان إلى ايجاد صيغة المعسكرات المختلطة باشراف ثنائي . وحيث ان المختار لم يستطع فرض موقفه هذا الا أنه من جهة أخرى استغل هذه المعسكرات المختلطة لنشر الدعاية المناهضة للايطاليين ليؤكد ان للرفض الذي انتهجه طرقاً مختلفة في التعبير .

وعلى هذا فقد وجد الايطاليون انفسهم في موقع يستحيل معه تطبيق او ايجاد اى نفوذ على العرب في الداخل وعليه فقد وجدوا خلال فترة العمل الدبلوماسي — من عمر المختار كعائق عنيد في طريق محاولتهم لخلق نفوذ سياسي في ليبيا وبصورة خاصة في برقة (٢٢) وعليه فقد بدأت مرحلة العمل الدبلوماسي بالتلاشي في عام ١٩٢٢ مع بداية صعود الفاشية في ايطاليا التي حملت في تطلعاتها الفاشية بعداً عدوانياً اكثر حدة من السابق ، وفي نفس الوقت تخلى ادريس السنوسي عن ساحة النضال وذهب الى مصر ليكون المختار بعده النائب العام ولتبدأ مرحلة من الكفاح الشعبي حيث ابتدأت حرب لاهوادة فيها .

كان صعود الفاشية في ايطاليا عام ١٩٢٢ بداية مرحلة جديدة في تاريخ العلاقات الايطالية مع حركة المقاومة الليبية . ففي هذا العام نقضت ايطاليا

---

(٢١) Ibid. p. 60

(٢٢) locit : Kola p. 58

ماكان متفق عليه من بنود في تحديد سيطرة كل من الفريقين تجاه المناطق الخاضعة لنفوذ كل منهما بموجب الاتفاقيات الانفة الذكر . واعلنت ايطاليا هجمه شرسة ضد حركة المقاومة لتفرض سيطرتها على كافة البلاد وباستعمال مختلف وسائل القمع والارهاب . حيث صعدت الروح الفاشية الاستعمارية بشكل كبير على اثر تسلم الفاشست للسلطة في ايطاليا . فكانت النهاية لمرحلة ماتسمى« بالعمل الدبلوماسي» وبداية المرحلة الملحمية بين سنة ١٩٢٣ — ١٩٣١ كما دعيت جيش استشرست القوات الايطالية في هجومها على البلاد في نفس الوقت ثبتت المقاومة لفترة ليست بالقصيرة واثبتت جدارة في الدفاع عن الوطن والشعب (٢٣) .

كان هروب ادريس الى مصر تحت ستار العلاج والاستشفاء بداية لدور الثائر عمر المختار بشكل فعلي حيث اصبح في هذه الفترة النائب العام لادريس ولكنه بالفعل كان قائد الحركة وقلب الثورة النابض حيث ارتبطت كافة شؤون الحركة به وبدأ نجمه يطغى حتى على القيادات السنوسية المتبقية .

لقد ابتدأت هذه المرحلة بنقض المعاهدات التي وقعت بين الطرفين وتبنت ايطاليا بعدها سياسة القبضة الحديدية . فاعلنت الاحكام العرفية وحلت المعسكرات المختلطة التي تبناها ادريس في معاهدة الرجمة . في مراوة وسلفطة والمخيلي والابيار وتكنس وعكرمه ، وباشرت حملات الابادة الجماعية ضد الاهالي بادئة باجدابيا مقر الحركة السنوسية حيث هاجمتها في ٨ مايس/ ١٩٢٣ وسحقت من وجدته فيها ثم انكفأت على المدن الساحلية الاخرى درنة وطبرق وبنغازي واعملت بأهلها قتلا وتشريدا ومنذ هذا الوقت بدأ الثائر عمر المختار اعماله بالتعبئة الوطنية الشاملة ، فعقد اجتماعات مطولة مع قبائل اولاد السعادى والجبارنة ، والحرابي تدارس معهم خلالها الاوضاع الجديدة الناشئة عن شراسة الهجمة الايطالية وتخلي القيادة السنوسية واستقرارهم في النهاية على

---

(٢٣) Kola part I p. 61

ضرورة مواصلة القتال واعتماد ستراتيجية حرب العصابات (٢٤) فكان هذا الموقف بداية التحول في اسلوب الكفاح عند المقاومة بعد ان فرض ادريس اسلوب العمل الدبلوماسي في اخذ حقوق الوطن والذي اثبت فشله ، فكان الصمود والمقاومة هو الطريق الذي عبر عن موقف الثائر عمر المختار والمعارض للخط الذي انتهجه ادريس والقيادة السنوسية المتبقية في البلاد فيما بعد.

ولا بد من الاشارة الى أن الثائر عمر المختار قد ابقى وشائج الاحترام للقيادة السنوسية المتمثلة بادريس على اعتبار انه لازال يمثل النائب العام . فكان ابقاء هذه الوشائج وبما يتأتى من بعد نظر الثائر المختار بضرورة عدم قطع العلاقات مع أدريس السنوسي وهو في مصر لكي يؤمن الامداد الخارجي للحركة بما تحتاجه من مؤمن وسلاح وخاصة ان الامدادات الخارجية شكلت حجماً ودعماً كبيرين لمواصلة الحركة لكفاحها ولكن هذا المسلك في علاقة الثائر المختار بادريس لم يدم طويلا فقد حدده اللقاء الذي تم في مصر بين عمر المختار وادريس في عام ١٩٢٣ بعد رحيله اليه لكي يثبت موقفه تجاه الطليان وهل هو معتزم العودة أم لا .

وهنا لابد من القول أن طريق الخيانة طريق واحد وأن العدول عنه في بعض الاحيان ربما لمصالح خاصة أو تكتيكات مرحلية ، لكن حتى هذه التكتيكات المرحلية لم يجدهـا المختار في موقف ادريس السنوسي بل وجد ايغالا في الانهزامية والابتعاد عن ابسط الامور التي تعكس التصاق المواطن بوطنه . فقد دعاه ادريس إلى التخلي عن الكفاح والاستقرار والراحة بعيداً عن تبعات الحرب ، فما كان من عمر المختار الذي ثبت حتى إلى النهاية واعتصم في الجبل الاخضر ليكون قاعدته حتى نهاية الحركة عندما قال له (لن ابرح الجبل الاخضر مدة حياتي ولن يستريح الطليان فيه حتى يواروا لحيتي التراب)

---

(٢٤) صالحية ، محمد : الادوار في حركة الجهاد الليبي . مجلة الا داب والتربية . جامعة الكويت ص١ — ١٥٢ . العدد ١٣/١٩٧٨ .

فكانت البداية في انتهاج المختار لطريقة بعيداً عن التبعية لادريس السنوسي في كيفية التعامل مع الايطاليين .

وايضاً لابد من الاشارة إلى أن أدريس السنوسي قد ترك اثره عند القيادات السنوسية الاخرى كأخيه محمد الرضا في جالو وابنه الحسن الرضا عند صفي الدين السنوسي في الجغبوب وهلال السنوسي ايضاً فكان لهؤلاء دوراً في شرخ حركة المقاومة لفترة واضعافها ومحاولة التأثير على كفاح الثائر المختار .

وعلى هذا فعند رجوع المختار من مصر كانت القوات الايطالية قد غزت جالو إلا أن المقاومة تصدت لها واستطاعت ان تحقق نصراً عليها ، إلا أن المختار سخط على السنوسي محمد الرضا لابدائه نوعاً من المسالمة والاستسلامية لاراء نفر ممن حوله لم يكن يهمهم إلا مصلحتهم الشخصية مما يوحي ان (٢٥) الموقف المساوم والمتميع الذي انتهجه ادريس لازالت اثاره عند القيادات السنوسية الاخرى ، لكن المختار سار الى جبله الذي صمد في وجه الطليان حتى نهاية الحركة وكأنه بهذا أراد أن يثبت موقفه الثابت في انتهاج اسلوب الكفاح المسلح بعيداً عن كل مساومة.

وعلى هذا الاساس فيبقى امران حريان بالذكر ، وهما ان المختار اقتصادياً لم يقطع علاقته مع ادريس وبقية السنوسية المسيطرين على البلاد والذين كانت الزكاة تجبى باسمهم ، لكنه سياسياً وعسكرياً كان قد انفصل عن السنوسيين منذ هذه الفترة بل وقف في وجههم وادانهم وهو الذي عرف باحترامه لهم .

وابتدأت حركة الثائر عمر المختار يساندها الشعب بكل فئاته في الجبل الاخضر وفي بقية المناطق الاخرى حيث تواصل القتال مع الايطاليين . وكان التوفيق يصحبها في كل تطوراتها مما شجع المقاومة وقوى نفوسهم ، فما شعر الطليان إلا وأنهم أمام قوة ضاربة هددت حصونهم الخلفية وغزت معاقلهم (٢٦) فكانت هذه الفترة بحق فترة المجاهد الكبير عمر المختار الذي

---

(٢٥) محمود : عمر المختار ص٣٤ .

(٢٦) محمود : عمر المختار ص ٣٩

لايقهر والذي طغت بطولته الفردية الفذة على تلك الفترة (٢٧) حتى استطاعت ان تجعل للقيادات السنوسية المتبقية مكاناً في الظل بعد ان كان المختار حتى هذه الفترة يقع تحت سيطرتهم .

كان لصمود المقاومة اثرها الكبير في تغيير ستراتيجية الايطاليين في مجابهة حركة المقاومة في البلاد فعلى هذا ارادوا ضرب الحركة من الخلف حيث عملوا على ضرب المواقع الخلفية لحركة ا لخلفية لحركة المقاومة والتي شكلت خطوط دفاع في العمق طوال فترة المقاومة فكانت الجغبوب التي كان عليها صفي الدين السنوسي موضع اهتمام الايطاليين .

لقد سقطت الجغبوب عام ١٩٢٦ التي كانت تمتلك امكانيات قتالية ضخمة . سقطت بدون مقاومة بأن سلمها صفي الدين السنوسي بايعاز من ادريس إلى القوات الايطالية (٢٨) في نفس الوقت حاول المختار ان ينقذ الجغبوب من هذا العمل الخياني الذي ارتكبه صفي الدين نائب ادريس عليها .وبمساعدة هلال السنوسي الذي كان دليل القوات الايطالية عبر الصحراء . فكان هلال السنوسي (أبو رغال) الثاني على درب الخيانة في هذا الجانب . لكن المختار لم يستطع ان يفك طوق الحصار الذي فرضه الايطاليون عليه ويؤكد هذا غرازياني (٢٩) ويعترف بأن المختار حاول الخروج من اطار الحصار الذي فرضوه عليه لكي ينقذ الجغبوب لكنه لم يفلح .

وعلى هذا فيمكن القول أنه في داخل حركة المقاومة كان هناك اتجاهين ، الاتجاه الاستسلامي والاتجاه المكافح . فقد مثل الاتجاه الاول ادريس وبقيت ذيول هذا الاتجاه متمثلة فيما تبقى من قيادات سنوسية في البلاد بينما مثل اتجاه الكفاح المسلح الثائر عمر المختار .

---

(٢٧) العقاد ، صلاح : ليبيا المعاصرة. ص٤٢ (Folayan, The Resistance, p. 54)

(٢٨) محمود ص٤٨ – ٥٠

وجاء الان دور الرضا السنوسي ليكشف عن موقفه الخياني فقد جاءه المختار إلى جالو (يشكو اليه حال المجاهدين في الجبل ويرجوه ان يعطيهم شيئا من المال الذي كان يجبيه باسمهم) فابى فالح عليه لكن عبثا ذهبت توسلاته ، رجاه، ان يشتري للمقاومة بعض جلود الابل ليستعملوها نعالا يتقون به حفا الجبل الاخضر ، فكان (كنافخ في رماد) (٣٠) امام هذا الاصرار من قبل الرضا. لكنه مع هذا بقى صامدا على موقفة الذي لم يتزعزع في انتهاج خط الكفاح ، فكانت مواقف الرضا بداية الارهاصات على درب الخيانة الوطنية، حيث استطاعت ايطاليا بعد ذلك استمالته وقدم لهم خدمات جليلة ضرب من خلالها مثلا في الخيانة ، في نفس الوقت استمر الثائر عمر المختار في خطه المخالف للقيادة السنوسية ولم يتأثر موقف الحركة بعد سقوط الجغبوب وجالو واوجلو في انتهاج الكفاح والمقاومة حتى الموت وبقي المختار حتى هذه الفترة (من الرموز التي لم يهتدوا الى اصلها حتى كانت سنة ١٩٢٨ حيث بدأ عهد المصالحة الفاشل بين حركة المقاومة والقوات الايطالية الغازية حيث استبانت من خلال مفاوضات المختار مع القواد الايطاليين عن شخصية مستقلة في اتخاذ القرارات مما يوحي بانتهاء اي تبعية للقادة السنوسيين ، في نفس الوقت الذي بدأ به الحسن ابن الرضا طريق الخيانة على درب ابيه وعمه ادريس وعودة الرضا لممارسة دوره الخياني باجلى مظاهره .

هدنة قصيرة الاجل :

في عام ١٩٢٨ دخلت العلاقات بين حركة المقاومة وقوات الاحتلال الايطالي تأخذ طابعا اخر . فقد تبين للايطاليين ان العنف والقوة في اخضاع الشعب العربي الليبي لم يجديا نفعا امام اصرارهم على الكفاح من أجل الحرية والاستقلال . في نفس الوقت كان مسلسل التطويق الذي فرضه الايطاليون باسقاطهم المراكز الخلفية لحركة المقاومة المتمثلة في الجغبوب وجالو واوجلو قد اضعف المقاومة نوعا وعلى هذا فقد ساد الحوار الدبلوماسي بين حركة المقاومة بقيادة الثائر عمر المختار وقيادة القوات الايطالية وعلى رأسها المارشال

(٣٠) محمود ، ص٥٨– ٥٩

بادوليو ، وحلت هدنة قصيرة الاجل اتضح من خلالها النهج الاستقلالي في شخصية عمر المختار بعيدا عن أية تبعية لنفوذ القيادة السنوسية لابل ان ما تبقى من السنوسيين انضموا تحت لوائه وقد اتضح من خلال الحوار الذي دار بين عمر المختار وبادوليوا ان الايطاليين تعاملوا مع المختار على أنه قائد حركة المقاومة ومن دون الاشارة الى ادريس السنوسي مما يؤكد ان المختار في هذه الفترة اصبح الرجل الوحيد الذي يقف على راس حركة المقاومة .

وقد استمرت المفاوضات بين الجانبين عرض كل منها شروطه من دون التنازل عن أي شيء منها ، وعلى هذا فقد فشلت المفاوضات لانه من الصعب تحقيق الشروط بين مستعمَرين ومستعمِر .

وبعد ما يقارب من سبعة شهور اعلن عن فشل المفاوضات واتجاه العدو الايطالي لى الرجوع إلى سياسة القمع والقسوة لاخضاع الشعب . في نفس الوقت اصدر الثائر عمر المختار بيانا مطولا أكد من خلاله استقلاليته الكاملة عن النفوذ السنوسي وقال (وليشهد العالم اجمع ان نوايانا نحو الحكومة الايطالية شريفة وما مقاصدنا الا الحرية والاستقلال . اما مقاصد ايطاليا واغراضها فترمي إلى القضاء على كل حركة قومية تدعو إلى انهاض الشعب العربي الليبي وهيهات ان يصلوا إلى مايريدونه ما دامت لنا قلوب تعرف انه في سبيل الحرية يجب بذل كل مرتخص وغال . وها نحن ندافع عن كياننا ونبذل دماءنا الزكية فداء للوطن . (٣١)

مما يؤكد ان اسلوب الكفاح المسلح في اخذ الحقوق الوطنية للشعب هو الاسلوب الوحيد الذي سار عليه المختار منذ بداياته رغم مسلسل التطويق الذي احكمه عليه الطليان ، وهو بهذا يقف في الصف المعارض للاتجاه السنوسي الذي ابتدأ بخط المساومة تحت غطاء العمل الدبلوماسي في اخذ الحقوق الوطنية .

---

(٣١) سعيد ، ثورات العرب ، ص١٦٢ ، محمود : عمر المختار .. ص٩٣

ومع أن ادريس السنوسي قد رحل إلى مصر – كما قلنا – الا ان بقايا السنوسية كقيادة تمثلت في محمد الرضا وابنه الحسن لازالت تلعب دورها المساوم على حساب المصالح الوطنية .

ففي هذه الفترة ارجع الطليان محمد الرضا بعد ان نفوه إلى روما وحققوا اغراضهم منه . ارجعوه الان لكي يمارس دوره الخياني الذي ابتدأه والذي سبقه ادريس في هذا المجال . وقد اكد غرازياني بان ارجاع الرضا كان لاغراض يخدم بها السياسة الايطالية وهي (ان يستغل في نشر البيانات ويتمكن من التأثير على الثوار – المقاومة –) (٣٢) في الوقت الذي كانت حركة المقاومة قد استعدت لتصعيد كفاحهاضد الطليان والتعبير عن استخدام اسلوب الكفاح المسلح كطريق وحيد لاخذ الحقوق الوطنية ، حتى ان الشعب الليبي في عام ١٩٢٩ قد اصبح جميعه من حملة السلاح نتيجة الموقف المتصلب الذي وقفته حركة المقاومة بقيادة المختار .

واضافة إلى دور محمد الرضا الخياني فقد جاء ابنه الحسن ليكمل دور أبيه على هذا الطريق فوجه نداء عام ١٩٣٠ إلى الشعب بلغ فيه درجة من الخيانة لا توصف. بينما يصف غرازياني الذي عرف بكونه سفاح ليبيا، نقول بينما يصفه (بالعزيز) و (رحيم عادل) ويصف الحكومة الايطالية (بكل فضيلة) وانهم – اي الشعب – (سيجدون لديها الخير والرحمة) يسمى حركة المقاومة بالعصيان حينما يقول (لهذا ادعوكم الى ترك العصيان) فكانت دعوة صريحة إلى الانشقاق عن الثائر عمر المختار وعلى هذا فان المقاومة الليبية عانت حتى في سنتها الاخيرة من ازمة هذا التيار المساوم الذي تمثل بما تبقى من قيادة العائلة السنوسية لكن مع هذا كان الشعب باجمعه مسانداً للتيار الثوري المعبر الحقيقي عن طموحاته والذي مثله الثائر الكبير عمر المختار وقد استمرت حركة المقاومة في عنفها دفاعاً عن الوجود والوطن، في نفس الوقت استمرت علاقة عمر المختار بشكلها السلبي تجاه العائلة السنوسية وعلى هذا، فان الاتجاه المكافح الذي مثله

(٣٢) غرازياني : برقة الهادئة ص ٤٦ – ٤٨.

المختار كان الشكـــل النهائي لحركة المقاومة في وقت انحسر نفوذ التيار السنوسي المساوم وعلى هذا فقد التف الشعب وراء المختار وساندوه بكل قواهم رغم مسلسل التطويق والتهجير الذي مارسه الايطاليون مـــــع المجموعات البشرية التي كانت تمد المختار في الجبل الاخضر بالعدة والعدد والمؤن والتي بلغت ما يقارب ٨٠ الف نسمة و ٦٠٠ الف راس ماشية، وقد اثار ثبات الشعب الرهبة في قلوب الطليان وعلى هذا فنجد غرازياني بعد ان انهكه الخطر او التيار المقاوم الذي مثله المختار يقول (إلى متى هذا الشعب لا يلين ولا يقبل الحلول) واخيراً فان علاقة المختار بالحركة السنوسية رغم كونه واحداً من اتباعها واكبر قادتها الا انه امتلك خصوصية العمل تجاه الاستعمار الايطالي بعيداً عن المواقف المساومة والتي اقتربت من خط الخيانة الذي مثلته القيادات السنوسية، وهذا الشكل الاستقلالي البعيد عن اي تبعية للقيادة السنوسية هو الشكل الذي طبع علاقة المختار في تعامله مع الايطاليين رغم اخفاقه في النهاية على اثر التضييق الكبير الذي احكمه عليه الايطاليون بعد سقوط الكفرة ١٩٣٠ وانشاء خط الاسلاك الشائكة، الا انه لم يستسلم بل استأسد في الدفاع ليثبت للتاريخ اسلوبه الكفاحي حتى النهاية ويعكس لنا صورة للقيادة السنوسية التي سقطت في وحدة الخيانة وعبرت عن مصالحها وانانيتها الضيقة بعيداً عن مصلحة الشعب وحقوقه الوطنية والقومية. وحتى اللحظات الاخيرة لحياة المناضل عمر المختار كانت تعبيراً عن هذا النهج غير المستسلم حيث لم يكن موته نهاية طبيعية لحياته بل سقط اسيراً في احدى جولاته مع الطليان وشنق علناً في قرية سلوق في ١٦ ايلول ١٩٣١، وهذه النهاية المأسوية توضح نهاية حركة المقاومة وبداية الاحتلال الايطالي لكل البلاد.

المصـــادر :

١ ــ الطاهر أحمد محمود الزاوي
(عمر المختار) (الحلقة الاخيرة في الجهاد الوطني في طرابلس الغرب)
مطبعة عيسى البابي الحلبي مصر ١٩٣٣ .

٢ ــ نقـولا زيـادة :
(برقة الدولة العربية الثامنة)
دار العلم للملايين بيروت ١٩٥٠

٣ ــ صلاح العقاد :
(ليبيا المعاصرة)
معهد البحوث والدراسات العربية / القاهرة ١٩٧٠

٤ ــ محمد صالحية :
(الادوار في حركة الجهاد الليبي) (دور الجبل الاخضر) مجلة كلية
الاداب والتربية جامعة الكويت . العدد ١٣ / ١٩٧٨ .

٥ ــ ف . ياخيمونتشـس :
(الحرب التركية الايطالية) ١٩١١ ــ ١٩١٢ ترجمة هاشم صالح
التكريتي بنغازي ــ الجامعة الليبية ١٩٧٠

٦ ــ رودلفو غرازياني :
(برقة الهادئة) ترجمة ابراهيم سالم بن عامر
بنغازي / دار مكتبة الاندلس ١٩٧٤

٧ ــ لوثروب ستردار :
(حاضر العالم الاسلامي) ترجمة عجاج توبهض
دار الفكر / بيروت ١٩٧١

٨ ــ فنسان حنطاى :
(العرب والعصر)
ترجمة جميل جبر / المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٦٣
٩ ــ ممدوح حقي :
(ليبيا العربية كأنك تعيش فيها) دار النشر للجامعيين ١٩٦٢
١٠ ــ أمين سعيد :
(ثورات العرب في القرن العشرين) نشر دار الهلال

(11) Folayan Kola
Umar AL Mukhtar of Libya. The Afr Studies 1974 V.11
(12) The Resistanee movement in Libya (Tariker) V.4 1973.
مجلة الدراسات القارية الّي تصدرها الجمعية التاريخية في نيجيريا.